

القاريء وإنتاج النص " قسم البرابرة " نموذجاً

د. إبراهيم سعدي

جامعة مولود معمري

تسعى هذه الدراسة إلى محاولة تبيان أن تأثير القاريء لا يتوقف في الحقيقة عند حدود فعل القراءة وما يتبعها من فعاليات، بل إن دوره سابق على وجود النص وبواكب إنتاجه وخلقه. وبالتالي فإن عمل القاريء لا يأتي بعد النص فقط، كما تركز على ذلك نظريات التلقي، بل قبله أيضاً. وهذا ما نحاول توضيحه، متخذين رواية بوعلام صنصال "قسم البرابرة" نموذجاً.

"قسم البرابرة"

صدرت رواية " قسم البرابرة" Serment des barbares لبوعلام صنصال عام 1999، وهي سنة كان فيها العنف قد بلغ أشده في الجزائر. والرواية وثيقة الصلة بهذه المرحلة، لكن الجانب التاريخي المتصل بثورة التحرير يتخللها من بدايتها إلى نهايتها، ولذلك كانت الرواية، في بعد من أبعادها الأساسية، محاكمة لحرب التحرير. وتتأسس بنية النص، الشبيهة من حيث الحبكة والعقدة بالرواية البوليسية، حول وقائع تدور في مدينة روية حيث يقوم "العربي"، وهو مفتش شارك في حرب التحرير ومشرف على التقاعد، بالتحقيق بشأن اغتيال مهاجر عجوز يعود إلى أرض الوطن للاعتناء بالجبانة المسيحية الموجودة في المدينة والتي تحتضن أيضاً قبوراً لأفراد من عائلة "فيلاتا" التي كان المهاجر المقتول، عبد الله باكور، عاملاً في مزارعها أثناء الاستعمار، قبل أن يلتحق بعد الاستقلال بهذه العائلة، في تولوز ويعمل في أراضيها هناك. وقد وري المهاجر عبد الله باكور التراب في نفس المقبرة وأيضاً في نفس اليوم الذي دفن فيه سي موح وهو تاجر مشبوه وفاحش الثراء قام بتمويل حركات أعمال إرهابية. وبالرغم من أن المفتش "العربي"، المجاهد في صفوف جيش التحرير سابقاً والذي وقع في الأسر أثناء تلك الفترة، لم يكلف سوى بالتحقيق في مقتل المهاجر عبد الله باكور، فإنه سيكتشف تدريجياً وجود علاقة بين الجريمتين، تحيل إلى صراعات قديمة بين الجزائريين أثناء الثورة.

تأثير القاريء المرسل إليه:

نعني بالقاريء المرسل إليه ذلك القاريء الذي يشكل النص خطابا موجها إليه بالنظر إلى مشاطرة النص إياه نظرتة إلى الأمور ومراعاته لحساسيته وردود أفعاله. إنه ذلك الذي يسميه إرفين قلق القاريء "المقصود" أو "النموذجي" الذي كان في ذهن المؤلف وهو ينجز عمله.

يقول أ. إيكو: " أن يكون المرء نصا يعني أن يضع حيز الفعل استراتيجية ناجزة تأخذ في اعتبارها توقعات حركات الآخر - شأن كل استراتيجية.¹ ولا يفرق إيكو هنا بين استراتيجية القائد العسكري واستراتيجية الكاتب إزاء القاريء سوى في " أن المؤلف، بعامه، يسعى في كتابه إلى أن يجعل الخصم رابحا، لا خاسرا². وبما أن الأمر كذلك فهذا يقتضي تحول القاريء نفسه إلى "نص" والكاتب إلى قاريء له حتى تتم عملية إدراك "أفق انتظاره" لتحديد استراتيجية النص الابداعي المناسبة. ما هو القاريء الذي تسعى هذه الاستراتيجية إلى كسب رضاه أو جعله رابحا إذا ما شئنا استعمال تعبير أ. إيكو؟ نستطيع التعرف عليه من خلال أحكام القيمة المضمرة في السرد ومن خلال وجهات النظر المهيمنة في النص. يمكن أن نستدل عليه، مثلا، من خلال ظروف أسر "العربي" أثناء حرب التحرير. فلقد أصيب "العربي" بجروح في معركة اضطر فيها المجاهدون إلى الانسحاب، فتركوا رفيقهم المصاب على الأرض وجعلوا يغطونه بالحجارة والأغصان وانسحبوا، تاركين إياه في المكان، وراءهم. يقول الكاتب عنه: "عانى أشد رعب في حياته. لقد أدرك بأنهم دفنوه حيا وبأن مستقبله هو الموت في الأهوال"³. حينما وصل الفرنسيون إلى المكان اكتشفوا "القبر" و"العربي" الذي دفن فيه حيا، فنزعوا عنه الحجارة والأغصان. وهكذا وقع "العربي" الذي سيصير مفتشا بعد الاستقلال، أسيرا بين أيدي الفرنسيين بطريقة تشبه الخلاص والإنقاذ من الموت المؤكد والمروع نتيجة "فعلة" إخوانه في الكفاح.

بحكم الدلالة التي تتطوي عليه هذه الحادثة المسرودة في النص، يمكن أن نعرف بأن المرسل إليه هو قاريء أجنبي وأن نحدد أيضا، انطلاقا من الحادثة نفسها، بلده إن شئنا. وبتعبير آخر إذا ما طرحنا سؤالا يقول: أي قاريء يمكنه أن يرحب بالطريقة التي وصف بها النص أسر "العربي"، وأمکننا الإجابة عنه، استطعنا تحديد مواصفات القاريء المقصود. إنه من حيث الهوية قاريء ينتمي إلى طرف من الفاعلين الوارد ذكرهم في المقطع المذكور وفي

عموم النص؛ قارئ له خلفيته التاريخية والسياسية والايديولوجية ومن ثم له حساسيته أيضا وردود فعله المميزة له بالتالي. أي أن له، على حد تعبير هانس روبرت ياوس "أفق انتظار" محدد إزاء موضوع النص شرط ألا نتوقف عند المكونات الأدبية والثقافية وحدها لهذا الأفق. استراتيجية الكاتب المعتمدة إزاء هذا القارئ وانعكاسها في النص تكشف عنها أمثلة كثيرة أخرى مثل حديثه عن اتفاقيات إيفيان قائلا بأن: "الاتفاقية هي بالأحرى فخ شكلا ومضمونا؛ ثلاثون سنة بعد الطلاق هانحن مفلسون مع حانين (إلى الماضي) بعدد يفوق عدد سكان البلد ومبتزين يزيدون عما كان يضم من كولون.⁴ أو عن الكولون وكيف أنهم "في أقل من قرن، وبفضل قوة العمل، جعلوا من مستنقع جهنمي (مدينة روية) جنة مبهرة"⁵. وكذلك في حنين المهاجر عبد الله باكور المقتول، إلى أسياده المعمرين السابقين الذين التحق بهم في بلدهم. فسياق هذا الحنين واتجاهه خليقان بتحقيق تعاطف القارئ الذي انتقته استراتيجية النص وتحيزت له. وهو يتحقق، أعني التجاوب، في هذا المثال وفي غيره، بفعل مبدأ التطابق Identification الذي يفعل فعله في المتلقي الذي تحيز له النص.

هذا المتلقي الذي يحظى بالامتياز نستشفه في سياقات كثيرة أخرى في "قسم البرابرة"، وإن كان ليس له نفس الصورة دائما، كما حين يصف المؤلف منح فرنسا الجنسية ليهود الجزائر (مرسوم كريميو) بأنه قرار "ثوري"، أو في سياقات أخرى مشابهة تستثير التعاطف مع شخصية الإنسان اليهودي عامة.

تأثير هذا القارئ المقصود، لا يتوقف عند حدود المنطوق به، بل يمتد إلى المسكوت عنه أيضا. يتحدث النص عن مدينة روية في العهد الكولونيالي، فيقول: "في ذلك الزمن الماضي، كانت تعيش الهناء والرخاء؛ وكانت هيفاء، متأنقة، شهوانية وتحب أن تترين بالورود".⁸ وغير بعيد، يقول عن حاضر المدينة نفسها على لسان المهاجر العجوز بعد عودته إلى الجزائر: "لقد تركت جنة، ولما عدت وجدت جهنم"⁶. تأثير القارئ المرسل إليه على المسكوت عنه في هذين المثالين يتمثل في إغفال ذكر الوجه الآخر للصورة المثالية التي يقدمها النص عن هذه المدينة في العهد الكولونيالي. هذا المسكوت عنه هو بالذات ما يثير خيبة القارئ العرضي، غير المخاطب - بفتح الطاء - العارف بمضمون المسكوت عنه، الذي بوسعه نتيجة لذلك بأن يرد بمثل القول التالي: "نعم. كانت روية جنة في تلك الأيام، لكنها جنة الكولونيين وحدهم". أمثلة أخرى كثيرة يمكن إعطاؤها بشأن هذا التأثير

المزدوج للمرسل إليه، أي في القول وفي السكوت عن القول، في نص بوعلام صنصال. إن استراتيجية "قسم البرابرة" في بعدها الدلالي متفقة مع حساسية هذا القاريء النموذجي ومع وجهة نظره ومع أفق انتظاره بالمعنى الواسع. وهذا يعني أن النص قد اختار قارئه.

وإذا شئنا التحديد أكثر، قلنا إن هذا القاريء يتمثل بالأساس في "ملايين الفرنسيين الذين عاشوا في هذا البلد (الجزائر) واقعا يجعلهم تطابقه الشديد مع تاريخهم الشخصي، بمعالمه واضطرابات، عاجزين عن النظر إليه برزانة"⁷ أي أن قراء "قسم البرابرة" المرسل إليهم هم بالأساس ممن يعرفون بالأقدام السوداء. وقد اعترف الكاتب بذلك بلا مواربة في استجواب مع إذاعة France Culture. "نعم، إن الكتاب يعبر عن حنين الأقدام السوداء وعن الحضور الفرنسي الذي لم تستطع دعاية الـ FLN أن تمحوه أو تحوله إلى وجود شيطاني". وفي نفس الحصة قال بوعلام صنصال: "لا تمضي لحظة دون التعبير بهذه الطريقة أو تلك عن التحسر على مرحلة معينة... يجب ألا ننظر بأن الطائفتين، الأقدام السوداء والجزائريين، قد عاشوا عيشة الأعداء. هذا غير صحيح. يجب قول هذه الحقيقة". وفي لقاء من اللقاءات الأدبية التي تنظم في Aix – en – provence يومي 11 و 12 مارس 2000 بعد صدور روايته الأولى، تحدث بوعلام صنصال عن مشروع روائي آخر يروي "نظرة فرنسي، من الأقدام السوداء، على الخمسين سنة الأخيرة في الجزائر"⁸. باختصار إن ما يريد بوعلام صنصال أن يظهره لقرائه هؤلاء هو حسن نوايا النص تجاههم، أي حيال تاريخهم وتجربتهم وقضيتهم. وهو بهذه الصفة يقوم بنوع من عملية التطهير لهم.

المؤلف والقارئ وعدم التكافؤ

التأثير القبلي لهذا القاريء يمكن إرجاعه إلى كون النص وافد عليه، فهو لا يتوجه إلى جمهور محلي، وإنما إلى جمهور أجنبي، لا يستطيع النص أن يملئ عليه شروطه. إن علاقة النص والقاريء قد حددها هنا عدم تكافؤ القوة بين الطرفين، المؤلف من جهة والقاريء من جهة أخرى، مما حدا بالنص إلى الانفتاح والرضوخ لأفق انتظار القاريء المقصود. هذه العلاقة غير المتكافئة بين النص والقاريء في الحالة التي تعيننا هي في الحقيقة انعكاس لعدم تكافؤ سياسي وثقافي وحضاري بين الكاتب والقارئ. كما يمكن ربط هذه العلاقة غير المتوازنة بالظروف التاريخية التي أحاطت بإنتاج نص "قسم البرابرة" الذي صدر في أصعب مرحلة مرت بها الجزائر، مرحلة تميزت بالعنف والقتل والدمار والهروب

إلى الخارج وانتشار اليأس والخيبة والشك في البلد وبالتالي التشاؤم من المستقبل. وبصورة عامة فإن هذه العلاقة بما تتميز به من عدم تكافؤ ليست غير مظهر من مظاهر عدم تكافؤ العلاقة بين ما يسميه سمير أمين المركز والهامش. هذه العلاقة تحول الكاتب إلى ما يشبه السخرة un nègre على يد القاريء المرسل إليه، بحكم مركز القوة الذي يوجد فيه القاريء المقصود.

وبهذا الصدد، يمكن القول بأن الكثير من النصوص الجزائرية المكتوبة بالفرنسية تتأثر بهذه العلاقة غير المتكافئة التي تحمل، بهذه الدرجة أو تلك، النص الجزائري على تقديم الواقع قيد السرد في صورة ترضي قناعات " الآخر " ومخيلته ومركزيته. يمكن أن نشير بهذا الشأن إلى رواية الطاهر جاور Les Vigiles الصادرة عن دار لو سوي وكيف أنها تقدم صورة عن علاقة المجاهدين فيما بينهم لا تختلف من حيث دلالتها عن تلك التي تكشف عنها ظروف اعتقال "العربي" في "قسم البرابرة" لبوعلام صنصال. ففي نص الطاهر جاور يربط المجاهدون أحد رفاقهم إلى جذع شجرة ويتركونه في تلك الوضعية بحيث أن هذا "المسكين" لا يجد حلاً يحول دون قضاء حاجته داخل سرواله. وتتحدث رواية "منزل الأنوار" المنشورة في دار روبر لا فون عن قصر بناه أحد الحكام الأتراك أقامت فيه بعد ذلك عائلة يهودية قبل أن يتحول إلى مقر إقامة للقيادة الأمريكية أثناء الحرب العالمية الثانية ثم إلى مسكن للأميرال فرنسي. والمهم في سياق تحليلنا أن جميع الشخصيات التي تعاقبت على الإقامة في هذا القصر تبدو شخصيات إنسانية محبة، لا سيما الأميرال الفرنسي، باستثناء الحاكم التركي الذي ميزه النص بالتوحش والبطش والقهر، إشارة ربما إلى طبيعة الحكم التركي ككل في الجزائر، حسب وجهة النظر التي أراد الكاتب تبليغها.

تأثير القارئ غير المرسل إليه: نعني بالقارئ غير المرسل إليه ذلك الذي يتعارض "أفق انتظاره" مع قيم النص ووجهات نظره من الناحية السياسية والإيديولوجية، ومن ثم من حيث الوجدان. وهؤلاء القراء الذين هم عموماً أولئك الذين يشير إليهم النص أكثر من مرة بلفظة Les arabes والإسلاميين والمعربين. فقد اقترن ذكر هؤلاء في كل مرة بسياق يهدف إلى إثارة حالة لا تعاطف معهم. إنهم المدانون. فبشأن المعربين على سبيل المثال نجد النص يتحدث عن "النهابين الذين تكونوا في الشرق"⁹ وعن السلطة التي "تهيج الناطقين بالعربية"¹⁰ وعن الجامعة التي تدرس "ما يمقته العرب: الفكر الحر..."¹¹ وعن "عادة اغتصاب الأطفال التي جاءتنا من الأتراك وذبح النساء التي تعلمناها من العرب"¹² أو قوله بأنه "لا يوجد عربي صميم إلا وهو ظالم"¹³ وبأن "العربي لا يمكن أن يدخله الإيمان ويبقى هادئاً، كان ذلك معروفاً منذ ما قبل الأزل، لماذا القدوم من أجل دعوته إلى حب الحياة وإلى ملاطفة زوجته!"¹⁴ أو قوله وهو يصف جواً مثيراً للاستغراب: "الجو كان له شيء غير واقعي irréal. السماء لا تزال في مكانها لكن الأمر مخادع (...). ترى هل أصبحت النساء حرات في غدوهن ورواحهن؟ والماء يجري في العين؟ والقبلات مسموح مشاهدتها في التلفزيون؟ والعرب يغادرون البلد؟"¹⁵ كل هؤلاء ممن تشير إليهم هذه الأمثلة وكثير غيرها، هم من غير المرسل إليهم، باعتبار أنهم من المدانين في النص ومن المتهمين، أي الأشرار، وذلك إلى جانب "أشرار" آخرين: الإرهابيين، الحكام، المافيا... وهم في بعدهم الدلالي داخل هذا النص نتائج التأثير القبلي للقارئ المرسل إليه.

اللغة والإيديولوجيا والمتلقي: التأثير القبلي للمرسل إليه في "قسم البرابرة" ينحصر في الجانب الإيديولوجي متمثلاً في أحكام القيمة التي تتخلله وفي الاتجاهات السياسية والتاريخية والحضارية المتضمنة فيه. وغني عن البيان أن هذه الإيديولوجيا ليست هي التي تمنح في حد ذاتها النص قيمته الأدبية، بل التعبير السردى الجمالي عنها.

إن اللغة التي كتب بها النص، أي الفرنسية، ليست العامل المفسر بشكل مباشر لوجهات نظر النص، فالتفسير نجده بالرجوع إلى مكونات أفق انتظار المرسل إليه، أعني القارئ الذي اختاره النص. وما يمكن أن يؤيد ذلك أن النصوص الجزائرية المكتوبة بالفرنسية الموجهة إلى الجمهور المقيم في الداخل، مثل رواية Les sept remparts de la citadelle التي تروي حرب التحرير لمحمد معارفية الصادرة سنة 2003 عن مؤسسة

ANEP لا نعثر فيها على طروحات شبيهة بما نجده في "قسم البرابرة". إنها تتحدث عن الأقدام السوداء خارج المنظور الأحادي والإيديولوجي الذي يجعلهم ملائكة أو على العكس شياطين، كما تتحدث عن المجاهدين ليس كأبطال منزهين، بل كبشر تمتزج فيهم البطولة بالضعف الإنساني، لكن القارئ يخرج مقتنعا بعدالة قضيتهم. وسبب هذا الاختلاف بين هذين النصين المكتوبين بنفس اللغة راجع إلى اختلاف القارئ الذي يقصده كل منهما، وإلى أن العلاقة بين نص بوعلام صنصال والقارئ هي علاقة تكافؤ، بينما هي ليست كذلك بين نص بوعلام صنصال وقارئه النموذجي، أي المقصود. وللسبب عينه لا نجد على المستوى الأيديولوجي اختلافا بين النصوص المنشورة في الجزائر تبعا لاختلافها في لغة الكتابة.

ويبدو أن احتواء النص على بعد إيديولوجي يعكس رؤية "الآخر" إلى "الذات"، الجزائر، العرب والإسلام عامة يبدو قيمة مضافة لها أهميتها بالنسبة للقارئ "الآخر" لا سيما الذي ينتمي إلى المؤسسات التي تسهم في تكوين الذوق والاعتراف العام بـ "التميز" مثل دور النشر والصحف العامة والوسائل السمعية البصرية التي تحدث عنها ليفين شوكنج في دراساته حول سوسيولوجيا الذوق أو جوليان هيرش في كتابه "أصل الشهرة"، لتقرير الإحتفاء بالنص، والذين يمكن القول، بشأن القراء المنتمين إليهم، بأن نص بوعلام صنصال مرسل إليهم بامتياز. إنه لا يطلب من النص الجزائري المرشح للاحتفاء به من قبل هذه الفئة من القراء فقط أن يكون جميلا، بل أيضا أن يعيد إنتاج تصورات "الآخر" ومخيله عن "الذات". وهذا يعني أنه كما لا يوجد نص بريء، لا توجد أيضا في الحقيقة قراءة بريئة أو تلق منزه. كل هذا يفسر الاحتفاء الذي لقيه كتاب بوعلام صنصال في بلد النشر والفتور عندنا، بالرغم من أن قراءتنا نحن هي عادة انعكاس لقراءات "الآخر"، أي قراءة لقراءات، أكثر منها قراءات أصيلة. إن أحكام القيمة في "قسم البرابرة" قد أثرت سلبا على التلقي الجمالي للنص من طرف القارئ العرضي، غير المرسل إليه، وليس ذلك بالضرورة نتيجة ذلك التنافر الطبيعي بين الفن والأيديولوجيا، كما يؤكد أرنتس فيشر بحق، بل بالدرجة الأولى نتيجة التعارض بين قيم النص وقيم هذا القارئ بالذات. فالأيديولوجيا في هذه الحالة تشوش على القارئ تلقيه الجمالي للنص. يقول بهذا الصدد قلفجانج إيزر بأنه "إذا ما أغري القارئ بالمشاركة في أحداث النص، لا لشيء إلا ليجد أنه مطالب عندئذ بأن يتبنى موقفا سلبيا إزاء القيم التي لا يرغب في التحفظ عليها، فعندئذ غالبا ما تكون النتيجة رفضا صريحا للكتاب ولمؤلفه"¹⁶. لكن التشويش المشار إليه لا يحدث عند القارئ المقصود، أي الذي اختاره

النص وتحيز له، لأن تطابق "أفق انتظاره" مع قيم النص يدفع به إلى عدم رؤية الطابع الايديولوجي لهذه الأحكام المؤسسة في مخياله كجزء من بنية الواقع، أي غير متعارضة مع الحقيقة من وجهة نظره، ولذلك لا يرفض الكتاب ولا مؤلفه عكس القاريء المدعو من طرف النص إلى الموافقة على قيم تتعارض مع قيمه. فالإيديولوجيا تتبدى بالدرجة الأولى للقاريء الذي تصطدم قيمه بقيم النص. من هنا تبدو لنا أهمية تخلص النص من الايديولوجيا واستعادة السيادة على نفسه بعيدا عن هيمنة المتلقي، لا سيما الهيمنة القبلية منها.

اعتبارات عامة: الرقابة الذاتية التي يمارسها الكاتب على النص، أي على الجانب المسكوت عنه، ليست غير انعكاس لهيمنة المتلقي. وأكبر من حاول التخلص من هذه الهيمنة هم الرومنطيقون والسورياليون. إن التأثير القبلي للقارئ يمارس على القول أكثر منه على طريقة القول، أي على الفكرة أكثر منه على الشكل، على المضمون أكثر منه على الجانب الجمالي. إن ما يقوله خطاب سردي ما ليس في أغلب الأحيان سوى ما يسمح القاريء أو المتلقي بقوله. إن تاريخ الأدب في جانب من جوانبه يمكن أن يكون تاريخا لاتساع مجال القول. وما يسمح بقوله في مجتمع، قد لا يسمح به في مجتمع آخر بالنظر إلى عدة عوامل، من بينها اختلاف قيم القارئ. ومن هنا يمكن أن نفهم الاختلاف الذي يمكن أن نلمسه على صعيد التوجهات بين النصوص الجزائرية ذات اللغة الفرنسية الموجهة إلى القاريء الأجنبي عن غيرها من النصوص الموجهة إلى الداخل. وفي حالات خاصة، يمكن للقاريء أيضا أن يفرض اللغة الواجب الكتابة بها. كما هو الأمر عندنا، مثلا، حيث القاريء يدفع إلى الكتابة باللغة الفرنسية، مما يفسر تخلي عدد من الروائيين عن الكتابة باللغة العربية. إن النص باعتباره كائنا اجتماعيا معرض للقهر الذي يمارسه المجتمع.

- 1- أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية، التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية، ترجمة أنطون أبو زيد، المركز الثقافي العربي، ص 67.
- 2- ن م.

3- Boualem Sansal, Serment des barbares, Gallimard, p 104.

4 - Ibid, 149.

5 - Ibid.

6- Ibid, p44.

7- Ahmed Mahiou et Jean – Robert Henry, Où va l’Algérie? Editions KARTALA et IREMAM, 2001, p402.

8-Ibid, 394.

9- Boualem Sansal, OP-Cit, p388.

10- Ibid, p386.

11- Ibid, 336.

12- Ibid, p103.

13-Ibid, p 140.

14- Ibid, P241.

15- Ibid,

- 16- أنظر روبرت هولب، نظرية التلقي، مقدمة نقدية، ترجمة عز الدين إسماعيل، المكتبة الأكاديمية، 2000، ص153.